أوراق الشتات

جبرا إبراهيم جبرا

بتُّ أتساءل في الآونة الأخيرة، كلما وجدتُني منهمكاً في كتابة أَعدّها مهمّة: ترى هل سيجد القارئ فيها ما يهمّه، وبأي مقدار؟ بل هل سيجد القارئ فيها ما يهمّه أبداً، مما يبدو أنه يهمّني جداً بحيث أريد الخوض فيه؟

والغريب أنني في السنين المواضي لم أطرح على نفسي سؤالاً من هذا النوع، إذ كنتُ باندفاعي في ما أخطّه على الورق كلّ يوم، أتصور أنني أقول ما يجب قوله، ومادام يهمني، فلا بدّ أنه سيهمّ القارئ أيضاً. وإذا لم يلق منه اهتماماً، فلن يكون ذلك ذنبي، لأنني أعطيه من أعماق القلب ومن أعماق الفكر معاً، وليس لديّ ما هو أعزّ من هذا الذي أعطيه.

يبدو أن تقادم السنين لا يزيد المرءَ حكمةً فحسب، بل يزيده أيضاً شكّاً في قيم الأشياء التي تتراكم لديه، وفي قيم الأفكار والآراء التي تتقاذف عليه من كل صوب، وإذا به يحسّ أن معظمها، في واقع الأمر، لا يعنيه في كثير أو قليل. فهل هذا الذي يفيض به قلمُهُ هو أيضاً سيلقى ذلك الشكّ نفسه من الآخرين في قيمة ما يحمل من فكر، أو موقف، أو رأي؟

إنه تساؤل مشروع، وأحياناً مقلق، في زمنٍ رَخص فيه ما يسمّى بالفكر، وتعهّرتْ فيه الكلمةُ ولا عهرَ المومسات. ولكن الذي عاش السنين الطوال بالكلمة، وللكلمة، ورآها تنعكس وهجاً في عيون الآخرين، لن يخدعه الرخيصُ والمُمَوْمَس. أو أن هذا ما وصل إليه من قناعة، وهي التي تُبقي القلم في يده، وتبقي عينيه شاخصتين إلى الأعلى وإلى الأعماق في وقت واحد.

ورغم هذا كله، يجد نفسه متأملاً في ما كتب، والدهر يتغيّر ويتقلّب، ويسأل نفسه هل سيكتسح الزمنُ القادم ما عقلتَهُ هو وبَلْوَرَهُ بدم شرايينه وعصارة آلامه حتى الآن؟ غير أن الذي يهمّه في هذه اللحظة، فيريد تشكيله بالكتابة، أليس هو امتداداً لما بدأ به حياته من رؤية ما، لا بدّ جاءته من أبعاد خفيّة تريد أن تتمظهر وتتجسّد؟ وهل يمكن لرؤية من هذا القبيل أن تكفّ عن فعلها، عن إلحاحها، وهي تتصل بجذورها بما تراكم من تجربة الإنسان في أعماق وعيه المتوارثة جيلاً بعد جيل؟

وتبقى الكتابة هي ذلك الفن، بل ربما الفن الوحيد، الذي مهما بدا أنه خاصٌّ وشخصي ومعنيّ بحياة صاحبه ونزعاته، فإن بوسعه أن يكون أيضاً، في الوقت ذاته، عامًّا ومليئاً بدلالات الآخر. ولكن هل تتحقق للكاتب هذه الطاقة الثانية، وهي الطاقة الأهمّ؟ هنا المسألة.

كلّما انتهيتُ مِنْ كتابةٍ شغلتني زمناً، أتساءل:
هل كانت تستحقّ منّي ذلك الجهدَ كُلّه،
أم أنّ ما تحقّق ليس أكثر من وهمٍ مجنون؟

فبلوغ الآخرين عن طريق الكلمة معناه بلوغُ عقولهم وعواطفهم، بلوغُ وعيهم ولاوعيهم، على نحو يصعب تحليله، لما يحتويه من قدرات متداخلة في نسج الكتابة، بعضها معرفة، وبعضها تجربة، وبعضها سحر خالص، تؤدّي جميعاً إلى خلق ذلك التماهي العميق الغامض بين القارئ وما يقرأ، فيشعر أن ما بين يديه من كتابه يهمّه، ويثيره، ويفرحه، ويغضبه، ويعلّمه، ويدفع به إلى طلب المزيد من تجربة، المزيد من حب وحلم، المزيد من حياة.

وإذا لم يشعر القارئ بذلك، أو ببعضه، فقد أخفق الكاتبُ اليوم، وسيخفق غداً مرة أخرى، لا لأنّ ما يهمّ الكاتب خاص وشخصي، بل لأن المعرفة والتجربة والسحر لم تتوفّر قدراتها في هذا الهمّ. والكاتب الكبير هو الذي تبقى اهتماماتُه وهمومُه، خصوصياتُه ونزعاتُه، مثيرةً لتماهي الآخرين معه، ومثيرةً لتساؤلاتهم الدائمة حوله، جيلاً بعد جيل.

مع تقلبات الدهر، وعوادي الزمن، يحقّ للمرء أن يتوقف بين حين وآخر ليتأمل في ما صنع من فن، وفي ما هو مازال يصنع، وهل مازال لما صنع فعلُهُ الذي توّقعه ذات يوم؟

ولسوف يتخذ العبرةَ من هذه البحار من الكلمات التي يراها في زمنه تتلاطم حوله، وإذا بها زَبَدٌ لا يبقى في الأرض، وله أن يدير لها ظهره، ولا يطلب إلاّ ما يبقى متألقاً يأخذ العين أينما حطّه الموج، ويحاول أن يضيف بكلماته إلى هذا الألق الذي وَحْده سيبقى ضوءاً يستنير به الإنسان، وهو المهدّد دوماً بالظلام.

* * *

في هذا الصباح، وأنا عائد من رياضتي اليومية سيراً على القدمين، صادفت صديقاً قديماً وهو يوشك أن يدخل العمارة التي له فيها مكتب محاماة، فأصرّ على أن أصعد معه لشرب فنجان قهوة عنده، لأن لديه، كما قال، شيئاً يريد أن يطلعني عليه.

في المكتب أخرج مجلّة قديمة، وقلّب أوراقها، واستقرّ على صفحة وضعها أمامي، وقال: «لا أصدق! لا أصدّق أنك كتبت هذا المقال ونشرته في شهر آب ١٩٦٧ - قبل أكثر من ستّ وعشرين سنة! كأنك فيه تتحدث عن أيامنا هذه بالذات!».

بين الحين والحين أجدني محاطاً بشباب في أوائل عشريناتهم، يحدّثونني عن رواياتي، ويحاورنني فيها، وكأنني نشرتها أمس! ولا أنكر أنني أدهش وأفرح معاً، إذ أرى أن ما كتبته قبل عشرين أو ثلاثين أو أربعين سنة مازال يثير اهتمام قراء شباب، يرون فيه ما يصوّر معاناتهم اليوم، وتطلعاتهم وتساؤلاتهم المقلقة، وهل أقول ضروب عشقهم المحيِّر أيضاً؟

غير أنني أتساءل في الوقت نفسه: هل ما يجدون في هذه الكتابات هو بالفعل ما أردت للقارئ أن يجد يوم نشرتها؟ هل بقيت الكلمات تحمل تلك المعاني التي تخيلتها وقوّلتُها وفق إرادتي، أم أن معاني أخرى توالدت من هاتيك الكلمات بالذات وجعلت تتقولب وفق ما هم يتخيلون ويريدون؟

الكاتب الكبير هو الذي تبقى اهتماماته مثيرة لتماهي الآخرين معه ولتساؤلاتهم الدائمة حوله، جيلاً بعد جيل!

لعلَّ التساؤل غير وارد، أو يجب ألاّ يثير القلق: ما دامت الكلمة بقيت ولم تبدّدها رياح السنين، فلتحمل ما تولّده طاقتها الكامنة من معانٍ، كنتُ أم لم أكن أنا صاحبها. حسبي أنني استطعت أن أشكّل الكلمات التي جاءت وفي تضاعيفها القدرة الغامضة على هذا البقاء والتوالد، عبر أزمان شيمتها الكبرى النكران والتدمير... وما هذا البقاء في الكلمات إلاّ لأن معانيها الأولى تحمل أصلاً بذور الخير والديمومة للإنسان.

أم أن هذا وهم جميل آخر يطيب للكاتب أن يعيش معه؟ بل وهمٌ يطيب له أن يعيش به؟

* * *

كثيراً ما يُسأل المرء عن «نقاط الانطلاق» في ما كتب، و «المبادئ» التي دفعته في اتجاه التأليف... كأنما العملية منطقية جداً ومخطَّط لها مقدّماً. وهذا وهم صرفٌ. نقاط الانطلاق وهمية، والمبادئ وهمية، مهما حاول الكاتب لاحقاً البحثَ عن منظور فكريّ أو زمني لما حقق. بالنسبة لي، كانت نقاطُ الانطلاق عفوية، لا تتأمّل ذاتها. فهي تتبلور في أعماق اللاوعي وتتحول إلى قوة دفعٍ لا يفهمها المرء بوضوح، ولا يدري إلى أين هو منطلق منها. كلّ ما يعلم هو أن ثمة دفعاً من داخله نحو التعبير عن ذاته، نحو استيضاح مبهماتٍ تعبث به وتقلقه. وتجربته اليومية، مهما تكن عادية، تتراءى له في أشكال يريد تعيينها، وتحديدها، بالكلمة.

أما المبادئ، فهي بدايات، وليست بالضرورة أفكاراً محدّدة، والمهم فيها أنها لا تسمح للذهن بأن يستقرّ حتى يكون قد خاض غماراً من الكلمات، والأسئلة، والمبهمات: فتستقرّ لوقت ما، ليعاود الخوض في هذا الذي يقلقه، ويمتّعه، ويتحدّاه. وما من ريب في أن ثمة غواية هائلة في الكلمات بالذات: فنقاط الانطلاق، إن وُجدت بصيغة ما، فهي النقاط التي يغدو للكلمات فيها إغراءٌ قوي، لذيذ، لا بدّ من الاستجابة له. أما المعاني، أما الأفكار، أما المبادئ، فتأتي فيما بعد، وبعد زمن قد يطول، حين يتراءى للكاتب أن هذا الذي يطالبه بوقته بإلحاح، إنما هو ضرب من قضية آن له أن يفهمها. بل إنه قضايا.

وهل يمكن لأي إنسان، إلا إذا كان مسطّحاً وبدائياً في فكره وعاطفته، أن يبقى في إطار قضية واحدة؟ العالم طوفان من القضايا. وإذا كانت مهمة الكاتب أن يستوضح ما يجابهه من تجربة، وتكاد كل تجربة أن تكون قضية أخرى، فهو إذن مُجابَهٌ بقضايا يستحيل حصرها.

قد يلخّص الواحدُ منا قضاياه بأنها قضية الإنسان، حصراً. ولكن الإنسان مخلوق تاريخي، سياسي، اجتماعي، اقتصادي، ديني، عقلاني، عاطفي، مستسلم، رافض، تقيّ، زنديق، كثير العشق، كثير الكراهية، كثير الغضب، فانٍ كمواسم الربيع، وباقٍ بقاءَ الصخر والريح الهادرة. قضية الإنسان إذن ألف قضية. والكاتب يعي ذلك وعياً عميقاً وقويًّا، كتب في ذلك كله أم لم يكتب.. ثم إن لكل تعبير مستواه، بأكثر من معنى. فالمستويات أيضاً متعدّدة، بمعنى الصُّعُد ومجالات البحث والتفكير. وما أروع هذه التعددية التي حبانا الله بها، تمييزاً عن الجماد والحيوان!

* * *

(من نائل عمران إلى سراب عفان ـ أوراق سقطت من «اليوميّات».

«أدركت أنني في الآونة الأخيرة أخذ يصيبني ما يسمى، بمصطلح التصوير الفوتوغرافي، بازدواجية اللقطة ــ وذلك كلما وقعت عيني على شيء أو شخص جميل: لأنني إذ أراه، أراكِ معه في الوقت نفسه، وتتلبّس الصورةُ الواحدةُ الصورةَ الأخرى، لتتحول التجربةُ بكامل انفعالاتها أخيراً إلى تجربة سرابية.

«مثلاً: مساء أمس حضرتُ حفلةً موسيقية، كانت نجمتها عازفة كمانٍ رومانية شابة. أحسست لأول وهلة أن قوامها يماثل قوامك. وجهها قد لا يشبه وجهك بالضبط، غير أنه ببياضه ووورديته، بنضارته وطراوته، أوحى بمحيّاك. أو أن ازدواجية اللقطة فعلت فعلها، فجعلتُ أرى فيها وجهك. وفي الحال، كنتِ أنتِ الواقفة أمامي، ويداك المذهلتان تتحرّكان بالقوس وعلى الأوتار تحرّك السحر. وكان العزفُ بارعاً، واثقاً من قدرة صاحبته. وفي «كونشيرتو ڤيڤالدي لأربع كمانات»، كان لك حضورُ ربةٍ أسطورية تشحن النفس وتزعزع العقل بمستحيلات اللذة الصوتية واللذة البصرية معاً... كنت جالساً في القاعة في الصف الأمامي، على بعد أربعة أو خمسة أمتار من العازفة، وأحسست عند انتهائها من العزف،

أنني يجب أن أنهض وأقبّل يديها، يديك، الحاذقتين، الجميلتين، المجنّنتين، على مرأى من الجمهور كله... لولا أنني جَبُنت في اللحظة الأخيرة، وخشيت أن اكتشف أن هذه الكائنة الأسطورية التي أخذتني هي كريستينا وليست سراب، وأنا أريد تقبيل أنامل سراب التي تملأ بإيماءاتها مجال رؤيتي أينما تلفّتُّ، تملأه موسيقى: كأنّ زخارف العين هي زخارف الأذن أيضاً. ورحت أتساءل وأنا أسوق سيارتي عائداً بعد ذلك إلى البيت: هل كنت عائداً من موعد معك؟ لا ريب! مَنْ غيرك بوسعه أن يفجّر فيّ هذه الأحاسيس اللذيذة كلها؟».

* * *

اليوم، وأنا أسوق سيارتي، وقد دخلتُ بها نفقاً على شيء من الظلام، خطرتْ لي فكرةُ أن أكتب فقراتٍ متوالية أقرب إلى الشعر، يتناوب فيها الظلامُ والنور... وخرجت من النفق إلى ضياء الشمس، واستحسنتُ الفكرة.

كانت سوناتات سكارلاتي تتوالى من مسجّل السيارة. فأنا لا أطيق السياقة دون موسيقى من هذا النوع، أركّز ذهني عليها أو، بالأحرى، استسلم ذهنياً لها مع انسياب الحركة، فتتداعى الأحاسيس والصور، وتتمازج متعتي المطلقة بالموسيقى كموسيقى، مع تلك المستحيلات من العاطفة والخيال التي تعجز الكلماتُ عن اللحاق بها. وعندما أصل أخيراً إلى حيث أنا ذاهب، وأطفئ محرّك السيارة لكي أنزل منها، أكون كمن عاد من رحلة داخلية، سريّة، غامضة، لذيذة، إلى الواقع الذي لا بدّ منه والبشر الذين لا بدّ منهم ـ فأنا ونصيبي معهم. وينتابني الشعور عندها بأنني انتقل من كثافات التجربة وامتلاءاتها إلى ما هو عابر، وهلامي، وعديم الأثر... أخرج من الرؤيا، التي بلا زمن، وأدخل في المباشر المسيَّر باللحظة تلو اللحظة. ولكنني أبقى في مكان ما من دخيلتي أحملُ بعضاً من الرؤيا، شئت أم أبيت. ولعلّ بعضها يتحوّل بلا وعي مني إلى كلمات تتسرّب من أغوار مجهولة، وتستفزّني للكتابة، كيفما جاءت!

* * *

في حالات البؤس والكآبة، التي لا أستطيع تفسيرها، أجد أن الصمت، لا الكتابة، هو الناجع في الشفاء منها أحياناً. أم أن ذلك مجردُ شللٍ مؤقت لطاقة التعبير والتوصيل؟ كنت أقول فيما مضى إن المرء يشتد به الميل إلى الكتابة في فترات البؤس أكثر منه في فترات السعادة، لأن السعادة، من حيث الإفصاح عما في النفس، أميَلُ إلى العقم، إذا قيست بالخيبات والأحزان. غير أنني فيما يبدو غيّرت رأيي، لأن بؤسنا أضحى لا نهاية له، فما عادت به حاجة إلى التعبير المستمر، وفرحنا بات أمراً نادراً، يأتينا في ومضات نورانية علينا أن نحتفي بها قبل أن يبتلعنا الظلام من جديد. أم أن السبب هو عيشنا في زمنٍ بائس كئيب، راح يحاصر حتى قدراتنا اللفظية؟ كلما انتهيت من كتابة شغلتني زمناً وأوهمتني بمتعتها وأهميتها، وجدتني أفاجأ بالإحساس بأنني فُرّغت وتُهت، فأتساءل: هل كانت تستحق منّي ذلك الجهد كله؟ وهل جاءت عملاً دائم المعنى والسحر كهذه التوكاتا الهائلة لباخ، أو هذه القصيدة للمتنبي، أو هذه السونيتة لشكسبير؟ أمْ أنّ ما تحقق كله ليس بأكثر من وهم مجنون يولد ذاته، ويستمر في التوالد ذاتياً كرؤى المجانين؟

بغداد

لماذا أكتب بالإنكليزية؟ (*)

جبرا إبراهيم جبرا

ترجمة: د. سلمان داود الواسطي

منذ طفولتي تعلقتُ بحب الشعر الإنكليزي، وما إنْ بلغتُ السابعةَ عشرة أو الثامنة عشرة من عمري حتى كنت قد قرأت الكثيرَ من أشعار شكسبير ودرايدن وشيللي وكيتس وبايرون بلغتها الأصلية، وترجمتُ بعضاً منها إلى اللغة العربية، كما قرأت الكثيرَ من الأعمال الروائية بالإنكليزية، والكثيرَ من روائع الأدبين الفرنسي والروسي مترجمة إلى الإنكليزية والعربية. في تلك الفترة من حياتي بدأت بكتابة القصص القصيرة... باللغة العربية، طبعاً. ولغرامي باللغة أسلوبياً، فقد بدا على قصصي أنها تستمد من المصادر البلاغية للغة العربية الكثير من طاقتها، على ما كانت عليه تلك الطاقة، وترجمتُ إلى اللغة العربية قصصاً قصيرةً لأوسكار وايلد وجورج مور وأميل زولا وغي دو موپاسان وجيكوف، بل ترجمت حتى لماكيافيللي؛ إذ بصرف النظر عن أي شيء آخر، منحتني تلك الترجماتُ الفرصةَ لأن اختبر الإمكانياتِ الأسلوبيةَ للغة العربية ولأن أتعلم كيفية الإفادة من هوَسي بحبها. وعند بلوغي التاسعة عشرة كنت قد أنجزتُ ترجمةَ حياة تشيللي لأندريه موروا، وتعلمت الكثير عن الأدب، خلال ذلك.

عند ذهابي إلى «أكستر» ثم إلى «كيمبردج» لدراسة الأدب الإنكليزي، كنت قد اتخذتُ قراري ذلك عن عمد إذ شعرتُ بأنه لم

(*) ترجمة مقدمة كتاب **احتفال بالحياة** A Celebration of Life، وهو كتابٌ لجبرا صدر بالإنكليزية في بغداد عام ١٩٨٨.